

رحلة امرئ القيس إلى القسطنطينية بين الواقع والخيال

د. حسين سلمان جمعة

القيس جديداً أن يعرض باحث لهذه الرحلة ؛ فقد سبقه بحاتة أجلاء وتصدوا لمعالجتها . ولعل هذا يزيد في دقة مناقشة القضية ، وقد يسبق الوهم الى أن الستار أسدل نهائياً عليها ؛ ليجعل الولوج فيها - كما يُعتقد - غير ذي فائدة . ويبقى عزاء المرء لنفسه أن الرؤية الأدبية أو الانسانية أو الاجتماعية لا تقف وحيدة الجانب عند وجهة نظر ما ، كما أنه لا تستطيع حدود مهما كانت صارمة أن تنهي أية قضية فكرية . وهذا ما حفز النفس على معرفة رحلة امرئ القيس الى القسطنطينية معرفة جديدة قوامها الأساسي دراسة شعره .

يحثنا المنهج على قراءة النص الشعري قراءة واعية متأملة دون أن يفصل عن الظروف المحيطة به وبصاحبه ، والوقوف على ملابساته التاريخية والاجتماعية والنفسية ، ويدعوننا في الوقت نفسه الى معرفة آراء القدماء والمحدثين ، والامام بأخبار الشاعر . وهذا يدفعني الى القول : اني لا ادعي السبق بعرض الحقائق جميعها في هذا المقال ولكنني أسعى الى توثيق رحلة الشاعر وتصحيح ما التصق بها من آراء زائفة ، وأسعى الى تصويب الرأي في وفاته لأجلو خرافة الحلة المسمومة التي قيل : انها كانت سبب هلاكه في ديار الغربية والارتحال ، وقضايا أخرى تتضح من الحديث عنهما .

الآن استأذنك للرحيل لتتعرف سوياً على امرئ القيس الشاعر الجاهلي القديم الفحل الذي وضعه ابن سلام في طبقته الأولى (١) . فهو لم يسبق الشعراء لأنه قال « ما لم يقولوا ، ولكنه سبق العرب الى أشياء ابتدعها ، واستحسنها العرب ، واتبعته فيها الشعراء : استيقاف صحبه ، والتبكاء في الديار ، ورقة النسيب ، وقرب المأخذ » (٢) . لقد كان أحسن أهل طبقته تشبيهاً ؛ وهو « أول من لطف المعاني ، ومن استوقف على الطلول ، ووصف النساء بالظباء والمها والبيض ، وشبه الخيل بالعقبان والعصي ، وفرق بين النسيب

وما سواه من القصيدة» (٣) . وسبق عمر بن الخطاب هؤلاء جميعاً الى معرفه قدر امرىء القيس وقيمة شعره فقال : « امرؤ القيس سابقهم - لا يعني الشعراء - خسف لهم عين الشعر ، فافتقر عن معان عور أصبح بصر » (٤) . وقال علي بن ابي طالب : « رأيت امرأ القيس أحسن الشعراء نادرة وأسبقهم بادرة ، وانه لم يقل لرغبة ولا لرهبة » (٥) .

وامرؤ القيس القب له واسمه حنُذج بن حجر بن الحارث بن عمرو (المقصور) بن حجر (أكل المزار) ٠٠٠ (٦) ، ولد في بلاد بني أسد (٧) ، وترعرع في بني حنظلة ، وأقام بينهم حتى اذا شب وصلب عوده انطلق لسانه بالشعر متأثراً بخاله المهلهل الذي يعد أول من رقق الشعر (٨) . كما تأثر بمن سبقه من الشعراء مثل ابن خدام الذي أشار اليه الشاعر في إحدى قصائده (٩) :

عُوجاً على الطَّلّ المحيلِ لأننا نبكي الديار كما بكى ابن خِدام

كان امرؤ القيس غزلاً ميالاً بطبعه الى اللهو ، مستغرقاً بحب الشهوات طالباً للذات . وشجعه على هذا السلوك مُلكه وترفه وامنحه الله من جمال الوجه حتى قيل : ان الناس قيسوا بجمالهم اليه (١٠) . وفوق ذلك كله كان استعداداه الفطري مقوياً لذلك السلوك فجاهر بغزله الصريح ، وتحدث عن النساء بأسمائهن في أكثر من قصيدة . لهذا عده ابن قتيبة من عشاق العرب وزناتها (١١) . بيد أن المرء يلاحظ أن حياته لم تستمر على الشاكلة التي وصم بها ؛ فمقتل أبيه غير سلوكه ، وجعله رجل جد يسعى الى الأخذ بثأره بعد أن كان رجل لهو يدب الى حرمات النساء . فقد حرم الطيبات التي أحبها على نفسه وأقسم ألا يصيب امرأة ، وألا يغتسل أو يدهن أو يشرب خمرة حتى يدرك وتره من قاتلي أبيه . ويبدو أنه يملك همة عالية وينطوي على نفس طموح الى المجد ، ولا أدل على هذا من شعره ، الذي يقول فيه (١٢) :

فلو أن ما أسعى لأدنى معيشة كفاني - ولم أطلب - قليل من المال
ولكنما أسعى لمجد مؤثّل وقد يدرك' المجد المؤثّل أمثالي

حمل امرؤ القيس عبء الثأر على عاتقه دون اخوته ، وأخذ يعد العدة لحرب بني أسد وأظهر رغبة أكيدة في إعادة ملك أبيه وأجداده؛ فارتحل طالباً العون مرة من أخواله بني ربيعة، ومرة يستحث أبناء عمومته من اليمن وقبائلها (١٣) . ولكنهم جميعاً انفضوا عنه بعدما أمدوه ، بينما يرى أنه لم يشتف من بني أسد . . . ويبدو أن الحظ قلب له ظهر المجن مع القبائل العربية ؛ بل لعل مما راد الأمر وبالأعلى عليه ما فعله المنذر بن جابر السماء . فقد جهز جيشاً كبيراً يطلب فيه عنق امرىء القيس ، فهرب لاجئاً الى (المعلى) - وكان من جديلة طيء - (١٤) ولم ينجه الا دخوله في ملك الروم ، وكانت بلاد الشام تابعة لقيصر بيزنطة . وقد ذكر ذلك في شعره مادحاً المعلى الذي أجاره ومنعه من المنذر (١٥) :

كأنني اذ نزلت على المعلى نزلت على البواض من شمام
فما ملك العراق على المعلى بمقتدر ولا ملك الشام

لعل هذه الأسباب دفعت الشاعر الى التوجه نحو القيصر لمساعدته . واعتقد أنه في طبيعة من توجه الى ملك رومي ؛ إذ لم يحدث لملك عربي من مملكة كندة العربية الأعرابية أن فعل هذا . فمملكة كندة كانت شوكة في حلق الفرس والمناذرة معاً ، ولم تكن على وفاق مع الفساسنة ؛ ولا أدل على هذا من البيتين السابقين . وقد استفاد الروم من هذا العداء القائم بين كندة من جهة وبين الفرس والمناذرة من جهة أخرى . ومهما يكن من أمر كندة فقد تهاوت أركانها تحت وطأة طلم ملوكها لرعييتهم ، مما جعلها تنقض عليهم واحداً تلو الآخر ، وكان بنو أسد قد انقضوا على حجر فقتلوه . لم يكن تهدم هذه المملكة بسبب ضغوط خارجية عنها . وإن كان الفرس والروم يعمدون أحيانا الى ضرب القبائل العربية بعضها ببعض كما فعلوا بين المناذرة والفساسنة . وإنما كان نتيجة أكيدة للظلم الذي مارسه ملوكها .

توجه امرؤ القيس الى السموعل بناء على نصيحة رجل من بني فزارة كان يأتيه في حصنه؛ في تيماء . وتروي الأخبار أن للسموعل منزلة خاصة عند الحارث الفساني ، وهذا بدوره سيمد للشاعر يد العون ، ويوصله الى القيصر (١٦) . وينتهي امرؤ القيس الى السموعل فينزل مع ابنته وحاجاته وأصدقائه عنده ، ويستودعه ابنته وأدراعه وماله ، ويبقي معها يزيد بن الحارث بن معاوية ، ويختار لصحبته جابر بن حنني التغلبي وعمرو بن قميئة . ويروي الخبر أن السموعل وجه امرأ القيس الى الحارث الفساني وزوده برسالة شفاعة كي يتوسط له عند القيصر (١٧) .

إن نظرة متأملة الى هذا الخبر - وإن تكن عجيبي - توضح بهتانه ، وتفضح كذب ناسجيته . ولعل أكثر ما ينفيه محاولة الاستيلاء التي قام بها الحارث الفساني على أدرع الشاعر (١٨) ، وكلنا يعرف أن الحارث قتل أحد أجداد امرئ القيس وهو عمرو بن حجر الملقب بالمقصور (١٩) . فاستعانته بالحارث للوصول الى بلاط الروم قصة عجيبة غريبة تنكرها أخبار القبيلتين ، وخبر امرئ القيس معه باطل ينكره الشعر الذي تقدم ولا يؤكد أي بيت في الديوان . فلو قرأه المرء لما وجد بيتاً واحداً يوحي برد الجميل للحارث الفساني . ترى ألا يستحق مدحاً وثناء على صنيعة ؟ وكيف يتفق عدم ذكره وكلنا يعرف أن الشعراء شددوا الركاب اليه مابحين ؟ ولعل أبرزهم النابغة الذبياني وعلقمة الفحل وحسان بن ثابت وغيرهم (٢٠) . ويبرز شعره أنه مرّ بحوران وخملى وأوجر من بلاد الشام ويذكر أنه لم يز ما يُسر به بعد أن قطعت الحاجة أسباب اللقاء بأهله ، وبأسماء . ويجتاز تلك الأماكن الى حماة وشيزر على إبله التي أجهدا في السير (٢١) :

تذكرت أهلي الصالحين وقد آتت	على خملى خوص الركاب وأوجرا
فلما بدت حوران في الآل دونها	نظرت فلم تنظر بعينيك منظرا
تقطع أسباب اللبانة والهوى	عشية جاوزنا حماة وشيزرا
بسير يضج العود منه يَمْنُهُ	أخو الجهد لا يلوى على من تعذرا

ويتساءل المرء ما الذي دعاه الى تغيير طريقه عن الحارث الفساني وهو الوسيط له
عند ملك الروم !!؟ ويذكر أنه مرّ ببعلبك فأنكرته مثلما أنكره أهلها وابن جريج
في حمص :

لقد أنكرتني ببعلبك وأهلها ولابن جريج في قرى حمص أنكرا

ان توجه امرىء القيس الى قيصر ثابت من خلال هذه القصيدة الموثقة ، ولم يكن
ادعاء . وتراه مصمماً على رحلته مقيماً العذر لنفسه بقوله لو أراد غزو بني اسد
بقبائل من حمير لفعل ؛ وهو الذي ألجأهم الى وادي (جو ناعط) باليمامة : كما يفهم
من القصيدة :

فدع ذا وسلّ الهمّ عنك بجسرة . ذمول اذا صام النهار وهجنرا
عليها فتى لم تحمل الارض مثله أبرّ بميثاق وأوفى وأصبرا
هو المنزل الألاف من جو ناعط . بني أسد حزنًا من الأرض أوعرا
ولو شاء كان الغزو من أرض حمير . ولكنّه عمداً الى الروم أنفرا

وتظهر القصيدة أن الشاعر عمرو بن قميئة الشيخ المجرب لم يصدق أن امرأ القيس
سيبر بميثاقه ، ولم يتيقن من هذا الا حين أدرك أن الاميال تفصله عن دياره ؛ فما كان
منه الا أن بكى غربة الوطن والأهل . وقد وجد حثفه يمشي بين يديه ؛ بل انه يسير اليه
بأقدامه . وأحس بهذا يوم رأى (الدرب) أمامه . والدرب - على ما يراه الدكتور
عبدالحفيظ السطلي في لقاء معه - ممر مصوف بالحجارة يصل ما بين بلاد الشام والروم
لا تؤثر فيه عوامل الطبيعة؛ ليكون العبور عليه ميسراً للمشاة والخيول صيفاً وشتاءً (٢٢) .
عقدت الدهشة لسان عمرو ، وضاق ذرعاً بما يحس به من فراق الأهل والخوف من
المجهول فلم يتمالك من البكاء . أما شاعرنا فقد طفق يهدىء من روع الرجل ، ويمنيه
بالأمانى حينما يعود ملكاً وسيداً في قومه :

بكى صاحبي لما رأى اندرب دونه وأيقن أنّا لاحقان بقيصرا
فقلت له : لا تبك عينك انما نحاول ملكاً أو نموت فنعدرا
وانني زعيم ان رجعت مملكاً يسير ترى منه الفرائق أزورا

ويؤرخ لنا ما لاقاه في طريقه من اعراض الاصحاب ، وقد ازدوجت آلام الغربة . فكلما
توقع من انسان حسن الصبغة ورجا رفقته بدا منه الانكار وعدم الرضى . كما يحصي
لنا عدد الليالي التي قضاها بعد مغادرته أراضي الجزيرة (خلف منطقة الحساء) :

اذا نحن سرنا خمس عشرة ليلة وراء الحساء من مدافع قيصرا
اذا قلت : هذا صاحب قد رضيت وقررت به العينان بدلت آخر
كذلك جدي ما اصحاب صاحباً من الناس الا خانني وتغيرا

ويعترف الشاعر بأنه خاض حروباً مع أشخاص غرباء في مواضع من حلب (تادف وقذاران) * وكان انتصاره في حربه هذه تذكره بأمجاد آبائه من قبل ؛ ولعلها تخفف من حرقه غربته كما تخفف من آلامه لتتكب الأصدقاء :

ألا ربّ يوم صالح قد شهدته بتأذّن ذات التل من فوق طرطرا
ولا مثل يوم في قذاران ظلته كأني وأصحابي على قرن أعفرا

وتنقطع أخبار عمرو بن قميئة الذي قيل فيه : « بعض شعر امرئ القيس لعمرو ابن قميئة وليس ذلك بشيء » (٢٣) * وقد تكون وفاته حدثت إبان هذه الظروف فمات في غربته دون هدف فلقبته العرب بعمرو الضائع (٢٤) *

إذا وقع أمر الله فليس لأمره دافع ، فامرؤ القيس نفسه توفي في طريقه الى قيصر دون أن يصل الى غايته * فالقدر أبى عليه أن يحقق رغبته فنكبه بأبيه وبأصدقائه وأخيراً بنفسه * ولنا من قصيدة رواها المفضل الضبي دليل على ذلك (٢٥) :

ألا أبلغ بني حجر بن عمرو وأبلغ ذلك الحيّ الحريدا
باني قد بقيت بقاء نفس ولم اخلق سلاماً أو حديدا
قلو أني هلكت بدار قومي لقلت : الموت حق لا خلودا
ولكني هلكت بأرض قوم بعيد من دياركم بعيدا
أعالج ملك قيصر كل يوم وأجدر بالمنية أن تعودا
بأرض الروم لا سب قريب ولا شاف فيسند أو يعودا

فلو أنني نسيت هذا الحزن القاتل على شبابه ، وهذا الاحساس الممض بالموت بعيداً عن ديار وطنه لا يمكن أن أنسى هذه العبارة « أعالج ملك قيصر كل يوم * » فهو ما يزال يجهد للوصول الى ملك الروم وهيئات أن يتحقق له ما يريد « وأجدر بالمنية أن تعودا » * مات الشاعر غربياً قرب أنقرة بأرض الروم ؛ وكان هذا المكان خلق لدفن الغرباء عن أوطانهم قبل أن يدركوا غاياتهم (٢٦) :

أجارتنا أن المزار قريب واني مقيم ما أقام عسيب
أجارتنا إننا غريبان ههنا وكل غريب للغريب نسيب

لا يغير هذا البيتان - وهما من زيادات أبي سهل - حقيقة نهاية حياة شاعرنا المبدع * انتهت رحلته قرب أنقرة ، واغترب غربته الأبدية في قبره ، وهي أصعب من الغربة عن الأهل ، دفن الى جنب تلك المرأة (٢٧) وفيه يقول القائل - وقد نسب الى الشاعر - (٢٨) :

ربّ طعنة مثعجره وجفنة متحيره
وقصيصة مجبرة تبقى غداً بأنقره

هل انتهى الأمر عند هذه النقطة ؟ بالطبع لا . فموت الفجاءة دهم شاعرنا وقد نكبه الدهر بالجدري والجرب ، ولكن من أراد أن يميته بالحلة المسمومة لم يمه رحلته على هذه الشاكلة بل جعلها رحلة ممتعة ، فنسج له قصة حب مع ابنة القيصر . وقيل : ان الملك الرومي استعظم فعل امرئ القيس الدحيل الذي قدم طالباً عونه ومدده . صار اقيصر المتهتك فجأة شريفاً ألبياً تندفع الحمية الى رأسه حين تنأى الى مسامعه ذلك النبأ (٢٩) .

ولم ينته السخف عند هذا الخبر بل أدخل السمّار امرأ القيس الى الحمام مع القيصر . وكان الشاعر قد رآه (أقلف) فذكر ذلك في شعره (٣٠) :

اني حلفت يميناً غير كاذبة أنك أقلف إلا ما جلا القمر
إذا طعنت به مالت عمّامته كما تجمع تحت الفلكة الوبر

لعمري كيف يدخل الملك مع امرئ القيس عارياً وتثور حميته عليه في الوقت نفسه حينما أحب ابنته ؟

وإذا تركت أخباراً كثيرة عارية عن الصحة فأنني أتوقف على خبر الطماح الأسدي واسمه حبيب ، وكان امرؤ القيس قتل أخاه؛ فطوى كشفاً على مستكنة واندس الى بلاط القيصر - وكان منه بمكان - وعمل على إيفار صدره ، واحتال له وأشار اليه أن يبعث الى الشاعر بالحلة المسمومة ففعل (٣١) . وإذا كان العقل يقبل وجود رجل في بلاط الروم فان العقل يجانب الحقيقة لو اقتنع بفكرة الحلة المسمومة . ولا أدل على ذلك من شعره الموثق الذي يقر فيه بمكائد الطماح على الرغم من البعد المكاني بين الاثنين (٣٢) :

لقد طمّح الطماح من بُعد أرضه ليلبسني من دائه ما تلبسنا

وقبل أن أعرض لاثبات وفاة امرئ القيس بسبب الجدري والجرب والحمى أتوقف عند تواريخ الروم . فهي تذكر وفاة أمير على القيصر يدعى قيساً ، وتثبت أنه كان أوفد ابنه معاوية قبل قدومه اليه ، وكان القيصر قد حثّ والي اليمن وحليفه ملك الحبشة على اعانة ذلك الأمير العربي . وهو ما ذكره توتوز وبروكوب (٣٣) . وهذا أمر مقبول عقلياً ومنطقياً لأنه قريب الى الواقع؛ أما أن يمدّه بجيش فهذا محال « فليس هناك مأرب له قيمته في نظر القيصر يجعله يزود امرأ القيس بجيش كالذي تصفه الروايات » (٣٤) ، اذ كان في الفسانيين الكفاية للوقوف أمام المناذرة أولاً ؛ كما كان فيهم - ثانياً - الوقوف أمام القبائل العربية ولا سيما أن شوكة كندة قد ماتت . ولا ينسى المرء أن يذكر وفاة امرئ القيس التي حدثت ما بين سنتي ٥٣٠ - ٥٤٠ م (٣٥) وكان حكم جوستينيان ما بين ٥٢٧-٥٦٥ بعد الميلاد (٣٦) . وهذا يعني أن امرأ القيس توجه - على الأغلب - الى قيصر الروم نحو ٥٣٠ م (٣٧) .

وإذا كانت الأخبار قد شاعت حول رحلة امرئ القيس فأننا نرى أن الذي وصل الى القيصر هو الأمير العربي - الكندي وابن عم الشاعر قيس بن سلمة . ويؤكد هذا بروكلمان (٣٨) ؛ كما يؤكد عدم وصول الشاعر الى بيزنطة الدكتور جواد علي اذ قال :

« لم تشر الأخبار عن سفره الى القسطنطينية وعن كيفية وصوله الى قيصر ، ويظهر من شعره على كل حال أنه سلك طريق الشام ، وأنه مرّ بحوران وبعليبك وحمص وحماة وشيزر . أما بعد ذلك الى عاصمة الروم فلانعرف عنه شيئاً » (٣٩) . ويبدو أن بعض الباحثين لم يرق له الا ايصال شاعرنا الى القيصر ليمده بالعون . ويظهر هذا الباحث نزعة مقيئة كان القربان لها امرأ القيس (٤٠) . ويمكنني الآن عرض خبر يؤدي أهدافاً عظمت للحقيقة المجردة . فتواريخ الروم تذكر أيضاً أن رجلاً أصيب بالجذري فمات بسببه وتنص هذه المرة على اسمه بامرئ القيس « وذكر في كتاب قديم مخطوط أن ملك قسطنطينية لما بلغه وفاة امرئ القيس أمر أن ينحت له تمثال وينصب على ضريحه ففعلوا . وكان تمثال امرئ القيس هناك الى أيام المأمون . وقد شاهده الخليفة عند مروره هناك لما دخل بلاد الروم ليغزو الصائفة » (٤١) .

يضعنا هذا الخبر أمام أسئلة هامة منها: هل يعقل أن ينحت ملك تمثالاً لرجل أحب ابنته وطارحها الغرام ؟ أو هل يكون منطقياً أن ينحت تمثال لامرئ القيس ؟ وكان الملك نفسه قد بعث اليه بالحلة المسمومة ليقتله ويتخلص منه ؟ بينما يشير الخبر بوضوح الى اقامة صرح فوق ضريح امرئ القيس . وهذا يدل على احترام القيصر للرجل القادم اليه ، كما ينفي مقدرة الطماح على ابداء امرئ القيس مهما حاول لديه . ويشير الخبر بدقة الى وفاته قبل أن يدرك القسطنطينية ؛ فقد بلغته وفادة الأمير العربي ، ومن ثم وفاته بعد ذلك . وكان الملك يأمل طمعاً في خطبود حليف جديد من العرب مع الغساسنة . والو لم يكن هذا يجمع بين الطرفين لما صنع التمثال أبداً ، فالتمثال رمز لتقدير الشاعر الأمير واعتراف من الملك بمكانته في القبائل العربية .

وآراني أعرض هنا للحلة المسمومة التي ادعى أصحابها أنها كانت سبباً في وفاة الشاعر - ولعل الذي يبطل هذه الخرافة ما حققناه من الرحلة سابقاً ، وما بين أيدينا من شعره الموثق ، وقد يكون جابر بن حني التغلبي من نقل الينا أخبار الشاعر وشعره (٤٢) . فكيف يستقيم له أن ينقل شعره صادقاً ويخفي عنا أخباره عند القيصر وأخبار الحلة المسمومة ؟

ونستفيد من الخبر الموجود في الكتاب الرومي القديم أن ذلك الرجل مات بالجذري . وهذا حق لا يمارى فيه ، لأن امرأ القيس يقرّ بمرضه الذي جعله ينتقل على قرّ صنع له جابر بن حني التغلبي ، « وجابر هذا من بني تغلب ، وكان هو وعمرو بن قميثة يحملانه » (٤٣) . قال الشاعر (٤٤) :

فسحّت دموعي في الرداء كأنها	كلى من شعيب ذات سحّ وتهتان
إذا المرء لم يخزّن عليه لسانه	فليس على شيءٍ سواه بخزان
فاما تريني في رحالة جابر	على حرجٍ كالقرّ تغفق أكفاني

تأمل هذا اليأس الذي يطوي نفس الشاعر؛ فثيابه غدت أكفاناً له وقد أشبه الأموات؛

صار يسحّ دمه تهتاناً دون أن ينبس ببنت شفة حرصاً على كرامته ؛ وهو الذي ملأ الدنيا شعراً ، وفرّج كرب المكروبين :

فيا ربّ مكروبٍ كررتُ وراءه وعانٍ فككتُ الغلّ عنه ففدّاني

ويشير الى سبب وفاته في سينيته التي رواها الأصمعي . ويعرض فيها لوصف الحمى التي تدهمه ليلاً فتورقه فلا يغمض له جفن كأنه أصيب بالنقرس وهذا الداء قديم طالما عاوده سابقاً ، فإذا تنفس الصبح انكب على وجهه ملازماً النوم ، على حين اذا عسعس الليل تفرغ لمهومه ؛ وما آل أتيه من حال سيئة (٤٥) :

قلو أن أهل الدار فيها كعهدنا وجدت مقيلاً عندهم ومعرساً
فلا تنكروني انني أنا ذاكم ليالي حلّ غولاً فالعسا
فاما تريني لا أغمض ساعة من الليل الا أن أكبّ فانعسا
تاوبني دائي القديم فغلّسا أحاذرُ أن يرتدّ دائي فانكسا

لقد أرعبت الحمى امرأ القيس كما أرعبت المتنبي الذي أبدع في وصفها وان سبقه شاعرنا الى طرق موضوعها (٤٦) . ثم يذكّرنا بماضي شبابه متأسياً عليه وقد كانت الكواعب الحسان ترعوي اليه . ويعود مرة أخرى الى عرض مرضه ، اذ ضاقت ذراعه ذرعاً باللباس فلم يطقه ؛ وقد غزت القروح جسمه . ودب الخوف في أوصاله ، وأيقن أنه سيدرج في أكفانه تندبه الحسان ، فصرخ متألماً ومتمنياً لو نفق مرة واحدة وانتهت آلامه :

وما خفت تبريح الحياة كما أرى تضيق ذراعي أن أقوم فالبسا
قلو أنها نفس تمون جميعه ولكنها نفس تساقط أنفسا

ترافقت الحمى مع الجدري والجرب وتبدلت صحته سقماً ، وصار وجهه الوسيم دميماً ، وآلت سعادته الى شقاء وقد تحول الموت عنده الى بؤس حقيقي :

وبدلت قرحاً دامياً بعد صحة لعل منايانا تحولن أبؤسا

ويروي السكري قطعة شعرية يتضح منها الأمراض المختلفة التي داهمت الشاعر . فالجدري صيره مقروحاً فتخاله يلبس جبة منها ، بل انه يهرش جلده كالمرور ؛ وكأنه نكب بالنقرس ؛ وبدأ القرح منقوشاً في جسمه كنقش الخواتم (٤٧) :

لمن طلل دائر آينه تقادم في سالف الاحرس
فاما تريني بي عرّة كاني نكيب من النقرس
وصيّرني القرح في جبّة تخالّ لبيساً ولم تلبس
ترى أثر القرح في جلده كنقش الخواتم في الجرجس

وذكر محقق الديوان في أعلى المقطوعة أنه قالها بأنقرة يذكر علقته . وأكثر من تعرض لتحديد وفاته ذكروا أنه مات بالجدرى ولكنهم جعلوه في أثناء عودته (٤٨) .

تفاقم الأمر على الشاعر المبدع وقد نكبه الدهر مرتين : مرة حين البسه داء الجدرى جبة من القروح وأثقله بالحمى والجرب ؛ ومرة أخرى حين اتهمه القصاص والسمار بأنه توفي بسبب الحلة المسمومة لأنه بقي على عهده وتهتكه . ونسوا أنه ألى على نفسه ألا يدهن بدهن وألا يشرب خمرأ أو يفتسل . . . حتى يدرك ثأره (٤٩) .

بقي لي أن أتوقف على أمر آخر أجده هاماً في حياة امرئ القيس ورحلته . فالتركيب الجسدي وفكره الاستعداد الطبيعى لعدم تحمل المرض وهو يقرّ بضعفه لأنه شيخ هرم ، ويذكر هذا في سينيته السابقة .

ألا ان بعد العُدم للمرء قنوة وبعد المشيب طول عمرٍ وملبساً

ولعل في تركيبه العضوي ما يقوي قبول استعداداته للأمراض الجلدية فنظهر القروح أو الجرب أو تشقق الجلد كلما تقدم العمر بالمرء .

كلمة أخيرة لا بد منها لتنتهي الحديث عن هذه القضية برمتها . لو عرض باحث ما لشعر امرئ القيس الموثق ومحضه لما وجد تعريضاً بالقيصر الذي أسلمه الى الموت ، ولا بالطماح الأسدي الذي احتال له عند القيصر، ولما وجد ذكراً لابنة القيصر تلك الصبية التي فتنت الشاعر - وهو الذي لا يستطيع أن يمسك لسانه عن التغزل وذكر النساء بأسمائهن - ولما وجد أية إشارة في شعره الموثق والمنحول الى تلك الحلة المزعومة التي أدت الى وفاته . فهل يعقل أن يذكر الجرب (العرة) والجدرى (القرح) والحمى (التي تجعله أبداً يقظاً في ساعات الليل) ولا يذكر الحلة ؟ حتماً هذا محال .

وأنا لا أكتف أحداً سري ، فأنا أقر برحلة امرئ القيس الى الحد الذي عولت عليه سابقاً من خلال شعره الموثق الموجود بين ظهرائنا، ولكنني أنكر بشدة استغفاف السمار والقصاص والرواة بعقل الانسان . فلما عملوا على تقوية روح القصص حول الحلة المزعومة أتوا رحلة امرئ القيس الى بلاط القيصر وأفرحونا بقصص أخرى مختلفة عنها . وإذا كان عملهم القصصي يحظى بأعجابي لقوة الخيال الذي يحمله واحكام الصنعة فإن تدجيلهم يثير حفيظتي عليهم ؛ كما يثير شفتي على تراثنا الأدبي العربي الذي لحقه خلط وزيادات أفقدته بهاء الأصيل، ويبقى لك أن تحكم .

★ ★ ★

□ الحواشي :

- ١ - محمد بن سلام : طبقات فحول الشعراء ، ص ٥١ .
- ٢ - المصدر السابق ، ص ٥٥ ، وانظر ابن قتيبة : الشعر والشعراء ج ١ ص ١٢٨ .
- ٣ - السيوطي : المزهج ج ٢ ص ٤٧٩ ، وانظر ابن سلام : طبقات فحول الشعراء ص ٥٥ .
- ٥٤ - ابن رشيق : العمدة ج ١ ص ٩٤ ، وابن قتيبة : الشعر والشعراء ج ١ ص ١٢٧ والسيوطي : المزهج ج ٢ ص ٤٧٨ .
- ٨٥ و٨٦ - الأصفهاني : الأغاني ج ٩ ص ٧٧ - ٧٨ ، والسيوطي : المزهج ج ٢ ص ٤٧٦ .
- ٩ - الديوان - ط ٣ - مصر : ص ١١٤ ، والجزائر : ص ٢٥٠ ، والشعر والشعراء ج ١ ص ١٢٨ ، وذكر أن اسم خدام روي على وجوه مختلفة منها : حزام ، حمام ...
- ١٠ - البغدادي : خزنة الأدب ، مجلد ١ ص ١٦٠ .
- ١١ - ابن قتيبة : الشعر والشعراء ج ١ ص ١٢٢ .
- ١٢ - الديوان - مصر - ص ٣٩ ، والجزائر ص ١٢٢ - ١٢٣ .
- ١٣ - الأغاني ج ٩ ص ٩٠ ، وتاريخ يعقوبي ج ١ ص ٢١٧ - ٢١٩ .
- ١٤ - الأغاني ج ٩ ص ٩٣ .
- ١٥ - الديوان - مصر - ص ١٤٠ .
- ١٦ - الأغاني ج ٩ ص ٩٦ - ٩٧ .
- ١٧ - المصدر السابق ج ٩ ص ٩٢ - ٩٣ .
- ١٨ - ابن قتيبة : الشعر والشعراء ج ١ ص ١١٩ .
- ١٩ - جواد علي : تاريخ العرب قبل الاسلام ج ٣ ص ٢٦٣ .
- ٢٠ - ابن قتيبة : الشعر والشعراء ج ١ ص ١١٨ ، وطبقات فحول الشعراء ص ١٦٠ .
- ٢١ - الديوان - مصر - ص ٥٦ - ٧١ ، والجزائر : ص ١٦٣ .
- ٢٢ - ويرى الدكتور السطلي أن مثل هذا الدرب بقي معروف إلى عهد قريب في منطقة من حلب يقال لها (باب الهوى) على حين جاء في معجم البلدان لياقوت أن الدرب مضيق قرب طرسوس ، مادة (درب) ج ٢ ص ٤٤٧ .
- ٢٣ - ابن سلام : طبقات فحول الشعراء ص ١٦٠ ، وانظر ابن رشيق : العمدة ج ١ ص ١٠٥ .
- ٢٤ - الأغاني ج ١٦/١٥٨ - ١٥٩ - ١٨٠ ص ١٣٩ ، وجواد علي ، تاريخ العرب قبل الاسلام ج ٣ ص ٢٦٣ .
- ٢٥ - الديوان - مصر - ص ٢١٣ ، والجزائر - ص ٤٢٥ .
- ٢٦ - الديوان - مصر - ص ٣٥٧ ، والجزائر - ص ٤١٠ ، والأغاني ج ٩ ص ١٠١ - مع اختلاف الرواية .
- ٢٧ - الأغاني ج ٩ ص ٩٩ - ١٠١ .

٢٨- الديوان - مصر - ص ٢٤٩ ، والجزائر ص ٤٧ ، وفيها تفصيل .

٢٩- ابن قتيبة : الشعر والشعراء ص ١٠٩ ، والأغاني ج ٩ ص ٩٩ ، وانظر الديوان - الجزائر - ص ٤٦ - ٤٧ .

٣٠- الديوان - مصر - ص ٢٨٠ ، يقال للصبي اذا كان قصير الغرلة : قد ختنه القمر ، ورجل أكلف لم يخن ، والغرلة جلدة الذكر .

٣١- الديوان - مصر - ص ٢١٣ .

٣٢- المصدر السابق ص ١٠٨ ، والجزائر - ص ٢٣٩ .

٣٣- مقدمة الديوان - الجزائر - ص ٤٨ ، وشعراء النصرانية - لويس شيخو - ج ١ ص ٣٥ ، ودائرة المعارف البريطانية .

٣٤- علي الجندي - تاريخ الأدب الجاهلي ج ٢ ص ٥٥ .

٣٥- انظر الزركلي : الأعلام ، امرؤ القيس ، ويحدد سنة مولده (١٣٠ ق هـ ، و ٤٨٧ م) وسنة وفاته (٨٠ ق هـ ، و ٥٣٩ م) وجرجي زيدان : تاريخ آداب العربية ج ١ ص ١٠٧ ، وفؤاد أفرام البستاني : الروائع ص ١٦ ، وجواد علي : تاريخ العرب قبل الاسلام ج ٣ ص ٢٦٥ وانفرد لويس شيخو فقال بوفاته سنة ٥٦٥ م : شعراء النصرانية ج ١ ص ٣٥ ، وأصلح علي الجندي بين الجميع فمد بسنة وفاته بين سنتي ٥٣٩ - ٥٦٥ م : تاريخ الأدب الجاهلي ج ٢ ص ٥٧ .

٣٦- انظر المصادر السابقة ، ومقدمة الديوان - الجزائر - ص ٤٨ .

٣٧- انظر جواد علي : تاريخ العرب قبل الاسلام ج ٣ ص ٢٦٥ .

٣٨- بروكلمان : تاريخ الأدب العربي - ج ١ ص ٩٨ - الترجمة العربية .

٣٩- جواد علي : تاريخ العرب قبل الاسلام ج ٣ ص ٢٦٣ .

٤٠- فؤاد أفرام البستاني : الروائع ص ١٦ .

٤١- الديوان - بيروت ، صادر - ص ٢٦ .

٤٢- سليم الجندي : امرؤ القيس ص ٢٧ - ٢٨ .

٤٣- الديوان - مصر - ص ٩٠ .

٤٤- المصدر السابق ص ٩٠ ، والجزائر ص ٢١٠ - ٢١١ .

٤٥- الديوان - مصر - ص ١٠٥ ، والجزائر - ص ٢٣٥ - ٢٣٦ .

٤٦- ديوان المتنبي - صادر - ص ٤٨٤ ومن أبياته في وصف الحمى :

وزائرتي كان بها حياء	فليس تزور الا في الظلام
بدلت لها المطارف والعشايا	فعافتها وياتت في عظامي
يضيق الجلد عن نفسي وعنهما	فتوسعه بأنواع السقام
كان الصبح يطردها فتجري	مدامها بأربعة سجام

٤٧- الديوان - مصر - ص ٢٣٩ .

٤٨- انظر هامش رقم (٣٥) .

٤٩- الأغاني ج ٩ ص ٨٨ .

□ المصادر والمراجع :

- ١ - الأصفهاني : الأغاني (صورة عن طبعة دار الكتب) القاهرة - الجزء التاسع ، والجزء الثامن عشر - طبعة الهيئة المصرية العامة ١٩٧٠ م .
- ٢ - امرؤ القيس : ١ - ديوان امرؤ القيس - تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم - دار المعارف بمصر - الطبعة الثالثة ١٣٨٩ هـ - ١٩٦٩ م .
- ٢ - ديوان امرؤ القيس - تحقيق الشيخ ابن أبي شنب - الجزائر - الشركة الوطنية للنشر والتوزيع ١٣٩٤ هـ - ١٩٧٤ م .
- ٣ - ديوان امرؤ القيس - بيروت - دار صادر - د/تاريخ .
- ٣ - امرؤ القيس : الأستاذ سليم الجندي - دراسة - دمشق، ١٩٣٦ م .
- ٤ - بروكلمان : تاريخ الأدب العربي - ترجمة عبد الخليم نجار - القاهرة - دار المعارف ج ١ - ١٩٥٩ م .
- ٥ - البغدادي : خزائن الأدب - بيروت - دار صادر - ط ١ .
- ٦ - جرجي زيدان : تاريخ آداب العربية - القاهرة - دار الهلال - ١٩٥٧ م .
- ٧ - جواد علي : تاريخ العرب قبل الاسلام - بغداد - المجمع العلمي العراقي .
- ٨ - ابن رشيق : العمدة في معائن الشعر وآدابه ونقده - بيروت - دار الجيل - تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد - ط ٤ - ١٩٧٢ م ، وانظر ط القاهرة - المكتبة التجارية ١٩٥٥ م .
- ٩ - الزركلي : الاعلام - القاهرة - ١٩٢٨ م .
- ١٠ - ابن سلام : طبقات فحول الشعراء - القاهرة - مطبعة المدني - قراه وشرحه الأستاذ محمود محمد شاكر - ١٩٧٤ م .
- ١١ - السيوطي : المزهري في علوم اللغة وأنواعها - القاهرة - دار احياء الكتب العربية - عيسى البابي الحلبي وشركاه - شرحه وضبطه وعلق حواشيه الأساتذة محمد جاد المولى والبيجاوي ومحمد أبو الفضل إبراهيم .
- ١٢ - علي الجندي : تاريخ الأدب الجاهلي - القاهرة - مكتبة الأنجلو المصرية ط ٣ - ج ٢ - ١٩٦٩ م .
- ١٣ - فؤاد أفرام البستاني : الروائع - بيروت - ١٩٣٣ م .
- ١٤ - ابن قتيبة : الشعر والشعراء - تحقيق وشرح أحمد محمد شاكر - القاهرة دار المعارف بمصر ١٩٦٦ م .
- ١٥ - لويس شيخو : شعراء النصرانية - بيروت - الطبعة الكاثوليكية ١٨٩٠ م .
- ١٦ - المتنبي : ديوان المتنبي - بيروت - دار صادر - د/تاريخ .
- ١٧ - ياقوت الحموي : معجم البلدان - بيروت - دار صادر - ١٣٩٧ هـ - ١٩٧٧ م .
- ١٨ - اليعقوبي : تاريخ اليعقوبي - بيروت - دار صادر - د/تاريخ .